لـو تركنـا العوامـل المولّـدة لنزعـة الخصوصيّـة، مـن رهـاب الاتصـال بالآخـر، والنرجسـيّة المفجوعـة، والضغـط الإبسـتيمولوجي- المنهجـي، وتنـوّع المـدارس في الغـرب، لـكان علينـا أن نلتفـت إلى التبايـن الأنطولوجـي، أي شروط الوجـود المتباينـة، مُجسّـدة في البـنى الاجتماعيّـة والثقافيّـة لوجـود الفـرد ووجـود الجماعـة ووجـود الطبقـة ووجـود المجتمـع. وأظـنّ أنَّ هـذا الحقـل هـو الأكـثر حسـماً.

حسـب قولـة أوغسـت كونـت (١٧٨٩-١٨٥٧) الـتي تعتـبر أنَّ علـم الاجتمـاع، هـذا الفـرع المعـرفي الجديـد الـذي قـام هـو بتأسيسـه، لـم يظهـر إلّا بعـد انتقـال البشريّـة مـن المرحلـة اللّاهوتيّـة، إلى المرحلـة الميتافيزيقيّـة، لتصل أخـيراً إلى المرحلـة الوضعيّـة، أي مرحلـة الدراسـة العلميّـة المجـرّدة للوقائـع المتاحـة أمـام الحـس، وفلسـفة العصر الصناعـي، عـصر المـدن الكـبرى، والعلـوم الحديثـة، والـدول المركزيّـة قوميّـة الطابـع، فـإنَّ ظهـور عـلي الـوردي نفسـه عالـمَ اجتمـاع، في عـراق أربعينيّـات القـرن المنـصرم، في رقعـة متأخّـرة تعيـش في عالـم مـا قبـل- وضعـي، يشـكّل تناقضـاً في التعريـف، أو اسـتثناء خارقـاً إن جـاز القـول. لقـد واجـه الـوردي مجتمعـاً لا يتّسـق مـع مقـولات علـم الاجتمـاع، فـلا وجـود فيـه لفـرد مسـتقل عـن الأسرة الممتـدّة، أو القبيلـة، ولا عـن السـادة والوجهـاء ذوي النسـب الشريـف، أو جماعـة الحـي والبلـدة، أو الطائفـة.

واجه الوردي، شأن علماء الاجتماع العرب حينها، مجتمعاً لا يتّسق مع مقولات علم الاجتماع، فلم يجد الطبقات الحديثة، ولم يجد مجتمع دولة - أمّة

واجـه الـوردي، شـأن علمـاء الاجتمـاع العـرب حينهـا، مجتمعـاً لا يتّسـق مـع مقـولات علـم الاجتمـاع، فلـم يجـد الطبقـات الحديثـة (لقـد سـخر مـن فكـرة وجـود طبقـة إقطاعيّـة في العـراق عـلى الغـرار الأوروبي)، ولـم يجـد مجتمـع دولة-أمّـة nation-state، وقـد كانـت الأجـزاء السـتة لكتابـه لمحـات اجتماعيّـة، وبخاصّـة الأجـزاء المتعلّقـة فيـه بثـورة ١٩٢٠ العراقيّـة ضـدّ الوجـود العسـكري البريطـاني، أكـبر هجـاء وسـخرية لفكـرة وجـود القوميّـة والوطنيّـة قبـل نشـوء الدولـة الوطنيّـة عـام ١٩٢١-١٩٢٤ إنشـاءً مـن فـوق.

كانـت هـذه صدمـة معرفيّـة، نظريّـة وعمليّـة. وحسـب دراسـة مصريّـة كان يُحتمـل أن يواجـه المصريّـون مشـكلة الـوردي نفسـها لـولا أنَّ الجيـل الأوّل منهـم درس الأنثروبولوجيـا؛ ممّـا سـاعدهم عـلى الـشروع في اعتمـاد الأنثروبولوجيـا الاجتماعيّـة لدراسـة مجتمعهـم المـصري بقُـراه الفلّاحيّـة ونقاباتـه الحرفيّـة (الأصنـاف) وطُرُقـه الصوفيّـة وعالـم الأزهـر الديـني فيـه، وباشـواته، وأفنديّتـه. والواقـع أنَّ هـذه المشـكلة كانـت مشرقيّـة-مغربيّـة، عربيّة-إسـلاميّة في آنٍ واحـد.[٤]

٤ـ انظر أحمد موسى بدوي، "التكوين العلمي السوسيولوجي في المشرق العربي: علم الاجتماع بحثاً وتدريساً في مصر والسودان"، بحث ألقي في ندوة "مستقبل العلوم الاجتماعيّة"، الجزائر، آذار ٢٠١٢، ونشر البحث لاحقاً في المستقبل العربي، العدد ٤٠٠، حزيران ٢٠١٢، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ص١٣١ فما بعدها.